MENA RESEARCH CENTER

مركز أبحاث ودراسات مينا

تحليل بنية السلطة السورية

من منظور علم اجتماع النخبة

صفوان قسّام

حقوق النشر والطبع ورقياً والكترونياً محفوظة لصالح مركز أبحاث ودراسات مينا.

ملخصٌ تنفيذيٌ:

تقوم الدراسة بتحليل بنية السلطة السورية بغية التعرف على الإدارة الخفية للدولة السورية، ومدى تأثيرها في الدولة والقرار! وهل حقًا هناك انفصالٌ بين الدولة «المؤسسات» وبين السلطة الخفية تصل إلى أن حافظ الأسد هو شخصيةٌ محوريةٌ؟! وهو من أسس هيكل السلطة السورية الحالية التي تديرها نخبة حاكمة؟ وأن هذه السلطةَ تقسم إلى قسمين: حكومة الواجهة وحكومة الظل، إذ تنقسم حكومة الواجهة بشكلٍ كلاسيكيٍ وهرميٍ متماسكٍ إلى مؤسساتٍ رسميةٍ واضحةٍ، تستند إلى الدستور ولها صلاحياتها، لكنها تُعد واجهةً لحكومةٍ أخرى تدير السلطة السورية من الخلف، تقوم هذه السلطة على عدة نخب أولها: أفرع الأمن، الطائفة العلوية والأقرباء، الجيش. ويأتي في المرتبة الثانية: حزب البعث العربي الاشتراكي، الجبهة الوطنية التقدمية. أما الثالث المكمِّل: فالسيطرة على الإعلام والاقتصاد والعناصر الموالية الاجتماعية الداخلية والدعم الخارجي. ومن خلال هذه النخب، تدار بقية مؤسسات الدولة: مجلس الشعب، والقضاء، والحكومة، والشعب. وتطرح الدراسة سؤالاً حول ماهية هذه السلطة، وبنيتها، وهل هناك سلطةٌ خفيةٌ تقود السلطة في الواجهة؟ أم إنهما منفصلتان بعضهما عن بعض؟ وما هي عناصرها وكيف تشكلت؟ وبالتالي فهم آلية عملها والإجابة على فرضية الدراسة القائلة: إن هياكل الحكومة السورية هي هياكلُ فارغةٌ من مضمونها، تديرها نخبة حاكمة في الخفاء.

محاور الدراسة:

- **المقدمة.**
- **السؤال الإشكالي والأهداف.**
- **المدخل المفاهيمي.**
- **نشوء الدولة السورية الحديثة، وصراعات الهوية، والانقلابات العسكرية، والمؤامرات.**
- **تجربة حزب البعث في وصوله إلى السلطة.**
- **تجربة حافظ الأسد في الوصول إلى السلطة.**
- **إجراءات حافظ الأسد للإمساك بالحكم والاحتفاظ به.**
- **وصول بشار الأسد إلى الحكم وإجراءات تثبيت سلطته.**
- **الخاتمة والاستنتاجات.**

مقدمة

إن الدولة السّورية دولةٌ تستكمل كل مقومات الشرعية؛ والمؤسسات الرسمية فيها تقوم على أساسٍ حديثٍ؛ إلا أن مراقبة ممارستها للسلطة تشير إلى وجود هياكل حكوميةٍ فارغةٍ، وأن هناك من يدير الدولة على نحو خفيٍ.

تُعدُّ هذه الدراسة مكتبيةً تعتمد المنهج الوصفي التحليلي، وتقوم بمراجعة الأبحاث الأكاديمية والمقالات العلمية والكتب الموثوقة والمواقع الإلكترونية المعتمدة للحصول على المعلومات اللازمة وتحليل مضمونها للإجابة على الأسئلة والفروض، والوصول إلى النتائج.

السؤال الاشكالي والأهداف:

يُعَدُّ مفهوم النخبة في علم الاجتماع مفهومًا إشكاليًا، ففي حين أنه قد يوحي بأن النخبة هي عِليةُ القوم وسادتهم، إلا أنه قد يشير أيضًا إلى طغمة حاكمة تفرض سيطرتها بالقوة والجبروت على البقية؛ وتأخذ الكثير من الآراء بالحسبان إن النخبة السياسية هي نخبة النخب في مقابل نخبة الفنانين والمثقفين والأطباء وغيرهم، إذ تتحد «نخبة» السياسيين بالعسكريين لتسيطر هذه النخبة/الطغمة على باقي النخب في الدولة والمجتمع.

منذ أن نُصب الملك فيصل على بلاد الشام ١٩٢٠، وحتى التعديلات الدستورية الأخيرة عام ٢٠١٢، عُدلت الدساتير السورية ٩ مرات! لكن الدساتير السورية منذ استلام حزب البعث للسلطة في آذار/مارس ١٩٦٣ أقرت أن حزب البعث العربي الاشتراكي هو الحاكم في الدولة والمجتمع.[١] وبالتالي فإن تركيبة السلطة السورية تمر عبر مؤسسة البعث؛ إلا أن الواقع أظهر أموراً مخالفةً لذلك! فقد انقلب البعثيون على أنفسهم، وحتى أن البعث لم يعد له الكلمة الأولى في الوزارات ومجلس الشعب، وباتت القرارات تصدر من القصر الجمهوري، وتذهب إلى الوزارات التي يُفرض عليها تنفيذها، ولا يمكن لأي جهةٍ رسميةٍ في الدولة حتى حزب البعث نفسه التحرك دون موافقة القصر الجمهوري وأفرع الأمن.

لذلك لم تشهد سورية منذ ثلاثين عامًا على الأقل استقالة وزيرٍ أو رئيس مجلس وزراءٍ واحدٍ! فغالباً يقالون أو يُقتلون في ظروفٍ غامضةٍ! ولا يتجرأ عضو مجلس شعبٍ على الانسحاب، أو تجميد عضويته، أو أخذ موقفٍ، أو انتقاد الأمن، أو الرئيس، أو القوانين التي يسنها أو حزب البعث إلا ويتم اختفاؤه.

كما أن رئيس الدولة السورية وقائد الجيش السوري وأمين حزب البعث السابقين اللذين انقلب عليهما حافظ الأسد، بقيا في السجن منذ ١٩٧٠ وحتى وفاتهما بداية تسعينيات القرن الماضي، دون محاكمةٍ! رغم أنهما كانا بعثيين[٢] هذه الآلية للتفرد بالسلطة جعلت من السلطة السورية نموذجاً يستحق الدراسة؛ إذ تقوم نخبة خفية بتحييد باقي النخب في المجتمع السوري وتهميشها وجعلها بيادق في أيديها.

---

١ ويكيبيديا، «دستور سوريا»،

٢ Medical letter writing action: Syria: Dr Nour al-Din al-Atassi and 15 others

المدخل المفاهيمي

يمكن تعريف السلطةٍ إجرائيًا بأنها القدرة على توجيه سلوكٍ معينٍ لفردٍ أو لمجموعةِ أفراد، بالاعتماد على القوة المؤَيدة بالقانون والشرعية أو بغيرهما، سواءٌ بقبول الطرف الآخر لهذه القدرة أو بإجباره على قبولها.

والسلطة السورية هنا هي الجهات الرسمية وغير الرسمية السورية التي تقوم بإصدار القرارات وتنفيذها، ومقومات اتخاذ هذا القرار وأقنيته، وجذور نشوء هذه الجهات وعلاقة بعضها ببعض. أما النخبة السورية الحاكمة فهي المجموعة التي تم اصطفاؤها عبر تاريخٍ طويلٍ من الصراعات السياسية والعسكرية والطائفية إلى أن أبعدت باقي النخب السورية، وسيطرت عليها وأدارتها من الخلف. ومن المعروف أن النخبة عموماً هي المسؤولة عن تطور المجتمع وتقدمه.

ولتعليل هذه الإشكالية وتفسيرها علينا العودة إلى الجذور الأولى لنشوء الدولة السورية، وتطورها سياسياً وعسكرياً وإقليمياً، لفهم آلية الاصطفاء التي مرت بها النخبة الحاكمة في سورية، وكيفية سيطرتها على باقي النخب؛ وبنية السلطة السورية الحالية:

نشوء الدولة السورية الحديثة وصراعاتها

طَرد الشريف الحسين - بمساعدة البريطانيين - العثمانيين من بلاد الشام ودخل فيصل بن الحسين إليها، وأعلن عن قيام المملكة السورية ١٩١٨، واستمر حتى دخول الفرنسيين بقيادة «غورو» ١٩٢٠، فأنهوا الحكم الوطني[٣]. كان هذا الدخول بموجب اتفاقية «سايكس/بيكو»، التي أكدها مؤتمر «سان ريمون» للدول المنتصرة في الحرب العالمية الأولى الذي وضع الهلال الخصيب تحت الانتداب البريطاني والفرنسي، وقسم بلاد الشام إلى أربع دول هي: سورية، لبنان، فلسطين، الأردن. كانت سورية فيه من نصيب فرنسا.

خلال الانتداب الفرنسي، نشطت الحركات السياسية والثورية المسلحة ضد الفرنسيين، وحصلت عدة ثوراتٍ أهمها الثورة السورية الكبرى بقيادة «سلطان باشا الأطرش» ١٩٢٥، في المقابل كانت القوى السياسية متمثلةً بالنخب السياسية والحركات والأحزاب والهيئات والوجهاء وكبار المثقفين، ينشطون في الحياة السياسية بوجه فرنسا، لكنهم يختلفون فيما بينهم حول الهوية السورية. كانت المواقف السياسية للسوريين تتفق على أن الهدف الأول هو جلاء الفرنسيين عن الأرض السورية، ثم الاتحاد مع باقي الأقطار العربية؛ وهو ما كانت تجابهه القوى الدولية وتمنعه.

في المقابل كان السوريون عمومًا يتخبطون حول هويتهم وبعدهم القومي! فتصارعت الأفكار، وتدرجت من الانتماء القبلي والعشائري إلى الطائفي والمذهبي والديني فالقومي، واختلفوا حول قوميتهم هل هي القومية السورية، أم العربية؟ وظهرت الأحزاب السياسية اليسارية، كالحزب الشيوعي السوري الذي ينادي بالأممية، وأيضًا الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي ينادي بالأمة السورية ووحدة الهلال الخصيب، والأحزاب العربية التي تنادي بوحدة الوطن العربي، والأحزاب الدينية

٣ أ.د. يحيى قسام، (٢٠٠٥)،»الموسوعة السورية الحديثة»، المجلد ١، دار النبلاء، بيروت، ص - ص ١١٩ - ١٨٣.

كجماعة الإخوان المسلمين.[٤]

ونتيجة ظروف الحرب العالمية الثانية، انتزع مهندس الاستقلال السوري «بشارة الخوري» قرار الاستقلال من هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن، وجلا الجيش الفرنسي عن سورية في نيسان/أبريل ١٩٤٦. بعدها تسلم الحكم في سورية مجموعة من القيادات الوطنية المدنية في جوٍ سياسيٍ ديمقراطيٍ،[٥] حتى حصل الانقلاب العسكري الأول في آذار/مارس ١٩٤٩ بقيادة حسني الزعيم، وافتتح بذلك عصر الانقلابات العسكرية السورية والعربية! حتى قيام انقلاب الجيش على أديب الشيشكلي ١٩٥٤ وإعادة السلطة للمدنيين. ثم عاد الجيش للانقلاب في أيلول/سبتمبر عام ١٩٦١ على الاتحاد بين سورية ومصر، ثم انقلاب الضباط البعثيين في آذار/مارس ١٩٦٣ ووصولهم إلى حكم الجيش.

ثم انقلاب البعث على نفسه وعلى حكومته ورئاسته في شباط/فبراير ١٩٦٦ وكان انقلاباً دموياً، وأخيراً انقلاب حافظ الأسد في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠ الذي كان عسكرياً، وقام بتصفية كل منافسيه ليتفرد في الحكم، ويرثه ابنه بانقلابٍ سياسيٍ على الهواء مباشرةً وتعديل الدستور في مجلس الشعب، واستبدال فقرة عمر رئيس الجمهورية من ٤٠ إلى ٣٤ ليتمكن بشار الأسد من الترشح إلى الرئاسة، ولما بلغ عمره ٤٠ عاماً أعيدت الفقرة إلى ما كانت عليه.[٦]

تجربة حزب البعث في وصوله إلى السلطة:

استنتجت النخبة البعثية، وخصوصاً الجناح العسكري منها، أهمية الدور الذي يلعبه الجيش في السيطرة على السلطة السورية، وكيف أن الحل العسكري كان الأفضل لأجل السيطرة على الحياة السياسية، إضافةً إلى المؤامرات وتصفية حلفاء الأمس؛ وبدا ذلك واضحًا في سياساتهم؛ وسعيهم للوصول إلى السلطة. وهو ما سنراه موجوداً أيضًا بوضوح في سياسة حافظ الأسد لاحقًا للسيطرة على الحكم. ولتوضيح ذلك نورد موجزًا لأهم الأحداث التي تؤكد هذه الفكرة:

تأسس حزب البعث العربي الاشتراكي في نيسان/أبريل ١٩٤٧. وأصبح بعد الانقلاب على الشيشكلي ثاني حزبٍ في الجمهورية السورية، بعد الحزب الشيوعي السوري، ثم قام بالتآمر على «الحزب السوري القومي الاجتماعي» وإغلاق مقراته ومطاردة أعضائه واعتقالهم وتصفيتهم.[٧] ثم اتجه لإضعاف جماعة الإخوان المسلمين، وبعدها وضع عام ١٩٥٧ مخططًا لإضعاف الحزب الشيوعي؛ وحل البعث نفسه خلال الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨، وكان يقامر بهذه الخطوة على أمل إلحاق الضرر بالحزب الشيوعي؛ ووقّع ١٦ سياسياً من بينهم مؤسسين من حزب البعث على بيانٍ يدعم الانقلاب على الوحدة عام ١٩٦١. وأعادوا تشكيل الحزب وافتتاح مكاتبه من جديد وفاز البعثيون بعدة مقاعد في الانتخابات التشريعية لعام ١٩٦١ وحققوا بذلك الخطوة التي أضعفت الحزب الشيوعي السوري.

على الصعيد العسكري خلال عهد الوحدة، أسس عسكريون بعثيون منهم «حافظ الأسد، صلاح جديد،

---

٤ أ.د. يحيى قسام، (٢٠٠٥)، «الموسوعة السورية الحديثة»، المجلد ١٦، دار النبلاء، بيروت، ص - ص ٤٥٣ - ٤٩٨.

٥ أ.د. يحيى قسام، (٢٠٠٥)، «الموسوعة السورية الحديثة»، المجلد ٣، دار النبلاء، بيروت، ص - ص ٧٥ - ١٣٣.

6 The rise of Syria›s controversial president Bashar al-Assad", ABC news

٧ مصطفى طلاس، (٢٠٠٢)، « مرآة حياتي العقد الثاني ١٩٥٨ - ١٩٦٨»، الجزء ٢، دار طلاس للدراسات والنشر، ص-ص، ٥٤٢ - ٥٦٠.

سليم حاطوم، مصطفى طلاس» لجنةً عسكريةً سرِّية للسيطرة على حزب البعث من أيدي الجناح المدني، بعد قرار حل الحزب. وكان لهذه اللجنة إلى جانب الناصريين دور بالسيطرة على الحكم في سورية في انقلاب آذار/مارس ١٩٦٣ بمباركة من ميشيل عفلق نفسه. وهناك رأي آخر يقول: إن اللجنة ومن بين أعضائها حافظ الأسد لم تكن فيمن خطط للانقلاب، بل دخلت عبر بعض البعثيين من خلال الفوضى التي نشأت يوم الثامن من آذار بعد أن رفض جمال عبد الناصر عودة سورية إلى الوحدة بالشروط التي وضعها الانقلابيون. ومنذ ذلك الحين صار حزب البعث هو الحزب السياسي السوري الوحيد المعترف به رسمياً، وأجبرت الصراعات داخل البعث اللجنة العسكرية على الحكم بالقوة؛ وبلغ ذروته في الانقلاب العسكري ١٩٦٦[٨].

من هذا السرد يتضح أن نخبة البعث العسكرية والسياسية قد استوعبت أهمية الجيش في السيطرة على الدولة السورية والحياة السياسية وباقي النخب السياسية والعسكرية غير البعثية.

تجربة حافظ الأسد في الوصول إلى السلطة

يعدُّ وصول حافظ الأسد إلى السلطة عملية اصطفائية مرت بعدة مراحل:

المرحلة الأولى: الصراع بين الأحزاب سياسياً وعسكرياً حتى وصول البعث إلى السلطة.

المرحلة الثانية: الصراع داخل البعث بين المدنيين والعسكر وانتصار العسكر.

المرحلة الثالثة: الصراع بين العسكر أنفسهم ووصول حافظ الأسد إلى السلطة.

لقد تعلم حافظ الأسد من الانقلابات والمؤامرات ثم بلور مشروعه الشخصي، واستفاد من كل التاريخ السابق للإمساك بكل مقومات السلطة، معتمداً على نخبة منتقاةٍ بعنايةٍ محيّداً باقي النخب المعارضة له والمشكوك بولائها في الجيش والدولة والبعث والطائفة العلوية والمجتمع، ومقرباً الموالين والثقات، حتى لو لم يكونوا من النخبة، واضعاً إياهم في المفاصل الحساسة. فاعتمد على مقومات السلطة في سورية وهي: الجيش والقوات المسلحة بالدرجة الأولى، حزب البعث العربي الاشتراكي بالدرجة الثانية. ثم انتقل للإمساك بباقي خيوط الحكم السوري؛ وهو ما يبدو واضحاً في بنية السلطة السورية الحالية. وللتدليل على ذلك نورد موجزاً لأهم النقاط التي تؤكد وجهة النظر هذه:

ولد حافظ الأسد في محافظة «اللاذقية» من أسرةٍ علويةٍ، وكانت تُكَنّى «بالوحش»، ثم تم تغيير اللقب لاحقاً إلى «الأسد»[٩]. انضم لحزب البعث ١٩٤٦؛ وتخرج من الأكاديمية العسكرية برتبة «ملازمٍ طيارٍ» ١٩٥٥. وكان ناشطاً ومهتماً باتحاد الطلبة في سورية؛ اختير للذهاب إلى مصر للتدرب على الطيران المقاتل فترة الوحدة[١٠]. ولم يتقبل مع عدد من رفاقه العسكر قرار قيادة حزب البعث بحل الحزب فقاموا بتشكيل تنظيمٍ عسكريٍ بعثيٍ سريٍ ١٩٦٠ عرف «باللجنة العسكرية»[١١]. اعتُقل في مصر

٨ د. نيقولاوس فان دام، (كانون الأول ٢٠٠٦)، «الصراع على السلطة في سورية: الطائفية والإقليمية والعشائرية في السياسية ١٩٦١-١٩٩٥»، الطبعة الإلكترونية الأولية، وزارة الخارجية الهولندية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص-ص ٣٦-٨١.

9 Daniel Pipes, (1989), "The Alawi Capture of Power in Syria", Middle Eastern Studies

10 BnF Services, (14/1/2021), "Hafiz al- Asad (1930-2000)"

١١ Pipes, ١٩٨٩, مرجع سابق

لدى وقوع الانفصال، وأطلق سراحه في عملية تبادل أسرى مع ضباط مصريين، وأُبعد بعد عودته عن القوات المسلحة لرفضه الانفصال وأُحيل إلى الخدمة المدنية في إحدى الوزارات[١٢].

بعد انقلاب البعث في آذار/مارس ١٩٦٣، أعاده صديقه ورفيقه «صلاح جديد» إلى الخدمة، ورُقّي، وعُيّن قائداً للقوى الجوية والدفاع الجوي. ونشأ صراعٌ على السلطةِ داخل حزب البعث بين الجناح المدني وبين اللجنة العسكرية[١٣] التي قامت في شباط/فبراير ١٩٦٦ بالانقلاب على القيادة المدنية، ثم تخلى صلاح جديد عن رتبته العسكرية لإكمال السيطرة على الجناح المدني لحزب البعث، بينما تولى حافظ الأسد وزارة الدفاع للسيطرة على الجناح العسكري للحزب، وبذلك تمت لهما السيطرة على البعث والجيش[١٤].

ثم ظهرت الخلافات بين حافظ الأسد وصلاح جديد بعد هزيمة ١٩٦٧، حيث تم تحميل حافظ الأسد المسؤولية عنها؛ ثم معارضته لرغبة صلاح جديد بخوض حربٍ طويلةٍ مع إسرائيل،[١٥] وأحداث أيلول/سبتمبر الأسود في الأردن عام ١٩٧٠، فقام صلاح جديد بعقد اجتماعٍ لقيادة البعث القومية لإقالةِ حافظ الأسد ومصطفى طلاس.

في هذا الوقت انعقد المؤتمر القومي العاشر الاستثنائي واتخذا قراراً باستبدال كل من بقي في مركزه من القيادات العليا مدنية كانت أم عسكرية أربع سنوات متصلة، وهذا يشمل الأسد وطلاس وغيرهما، لكن حافظ الأسد تمكن في ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠ من الانقلاب عسكرياً على صلاح جديد ورئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي وسجنهما بما عرف «بالحركة التصحيحية». ثم أتبعها بحركة ملاحقةٍ واسعة النطاق في الجيش والطائفة العلوية والبعث لأنصار صلاح جديد.[١٦]

وبذلك أصبح حافظ الأسد ومن معه هم النخبة الوحيدة «سياسياً وعسكرياً» المهيَّأة والمنظمة لاستلام السلطة في سورية، وهو ما عكسه بالتدريج على الإجراءات اللاحقة في سيطرته على بقية النخب في المجتمع.

إجراءات حافظ الأسد للإمساك بالحكم والاحتفاظ به

بعد انقلاب تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠ بأيام تولى حافظ الأسد منصب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع ونائب القائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٠، ثم ما لبث أن أصبح رئيس الجمهورية العربية السورية وأمين عام حزب البعث العربي الاشتراكي والقائد الأعلى للجيش والقوات المسلحة في شباط/فبراير ١٩٧١ ليُثَبَتَ في آذار/مارس ١٩٧١ رئيسًا للجمهورية العربية السورية لمدة سبع سنوات بعد إجراء استفتاء شعبي. وبعدها أعيد انتخابه في استفتاءات متتابعة أعوام

---

١٢ ويكيبيديا، حافظ الأسد، ٢٠٢١/٤/٨، مرجع سابق

13 Patrik, 1995, مرجع سابق, P 72-85

14 Patrik, 1995, مرجع سابق، P 86-103

١٥ كانت سياسات الحكومات السابقة، تتجه نحو تقليد الدروز في القيادات العسكرية، كنوع من التكريم لهم لخوضهم الثورة السورية الكبرى ضد فرنسا، ومواقفهم الوطنية وشجاعتهم، وهذا ما أوصل العديد من الشخصيات الدرزية إلى مناصب مهمة في الجيش، مثل المقدم سليم حاطوم واللواء فهد الشاعر واللواء شوكت شقير وقائد الجبهة مع اسرائيل المقدم طلال أبو عسلي والعماد حمد عبيد وزير الدفاع. وهم من تم تحيدهم تسريحهم من الجيش بعد انقلاب آذار/مارس ١٩٦٣ وانقلاب ١٩٦٦.

١٦ BnF Services, ٢٠٢١/١/١٤, مرجع سابق

١٩٧٨ و١٩٨٥ و١٩٩٢ و١٩٩٩[١٧].

أنشأ حافظ الأسد عام ١٩٧٢ «الجبهة الوطنية التقدمية» بقيادة حزب البعث العربي الاشتراكي. والهدف منها منع العمل السياسي في سورية خارج إطار هذه الجبهة ومنع تشكيل أحزابٍ جديدةٍ، ومنع الأحزاب عدا البعث من العمل بين طلبة الجامعات.؛ وترأس الأسد الجبهة.

على مستوى القيادة القطرية لحزب البعث، ألغى الانتخاب لأعضاء القيادة والمسؤولين البعثيين وبات تعيينهم يأتي بقرارٍ بتسلُّمِ رئاسة مؤسسات الحزب كافة.[١٨] كانت الانتخابات الرئاسية مزورةً على الدوام، وعكست مؤسسات الدولة والهيئات القضائية والبرلمانية والسياسية والأجهزة الأمنية والجيش جميعها مظهراً خارجياً على أنها هيئاتٌ مستقلةٌ تؤدي واجباتها بموجب الدستور والقانون. وبالرغم من أن البلاد تخوض العمليات الديمقراطية وتُجري الانتخابات الحزبية والبرلمانية، إلا أن أي شخص يخوض الانتخابات، سواءٌ على المستوى الحزبي أو البرلماني، لا بد أن توافق عليه الأجهزة الأمنية.

وابتكر ما يسمى «بالديمقراطية المركزية» وهي حرية التعبير عن الرأي لكن فقط في الاجتماعات الرسمية للحزب، وبقيت «حالة الطوارئ» طوال فترة حكم البعث وحافظ الأسد. وكان الجهاز الأمني للدولة يتحكّم بوظائف جميع مؤسسات الدولة الأخرى، التي كان له الصلاحيات المطلقة لتجاوز القانون المدني والعسكري والدستور تحت غطاء تلك الحالة.

وما يزال هيكل مؤسسات الدولة الأمني الذي بناه حافظ الأسد موجوداً حتى يومنا هذا، وهو يتألف من أربع إداراتٍ أمنيةٍ رئيسة هي: **إدارة المخابرات العامة (أمن الدولة سابقاً)، وشعبة الأمن السياسي وشعبة المخابرات العسكرية وإدارة المخابرات الجوية.** بالإضافة إلى ذلك، هناك قوة شرطةٍ عسكريةٍ وقوةٌ أمنيةٌ عسكريةٌ وقوة أمنٍ رئاسيةٍ. ولكل إدارةٍ من الإدارات الأمنية رئيسٌ ينسّق على نحو وثيق مع رئيس البلاد، كما أن لكل إدارةٍ رئيسةٍ عدة فروعٍ، ولهذه الفروع مفارزُ أمنيةٌ تتركز حول المدن والبلدات والقرى. ويحدد الرئيس دور كل إدارةٍ من الإدارات الأمنية، ونادراً ما تتداخل أدوار هذه الإدارات، وغالباً ما ينافس بعضها بعضًا.

فقد صُمِّمَ هيكل السلطة على أن تراقب الأجهزة الأمنية الشارع وبعضها بعضاً بهدف الإبقاء على ميزان القوة في يد الرئيس؛ فإذا حصلت إحدى الإدارات أو الفروع على سلطةٍ أكثر من أخرى، يمكن للرئيس أن يتدخل بتغيير رئيس تلك الإدارة أو بتغيير أدوار رؤساء الإدارات. والأجهزة الأمنية كانت دائماً تحت سيطرة الطائفة العلوية إلى جانب إشراك بعض الشخصيات من الأقليات الأخرى المنتقاة بعنايةٍ. وبمعزل عن المناصب العليا الحساسة، كانت التعيينات في أجهزة الأمن والجيش تعتمد عموماً على المحسوبية والمحاباة والعلاقات الأسرية، وليس على القدرة والكفاءة المهنية.

كانت السلطة الدينية تُمنَح من خلال موافقة الأجهزة الأمنية على شخصياتٍ دينيةٍ لرئاسة المساجد والمدارس الدينية وذلك على أساس أن الدعاة يُظهرون الولاء للدولة ولا ينشرون ما قد يعرّض نظام

---

١٧ Patrik, ١٩٩٥, مرجع سابق, P-p ١٦٩-٢٤٩

١٨ ويكيبيديا، (٢٠٢١/١/٣٠)، « القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي – قطر سوريا»

السلطة بمُجمله إلى الخطر.

ورغم قمعه لحركة الإخوان المسلمين في أعقاب مذبحة حماة ١٩٨٢، ومجازر أخيه رفعت الأسد بحقهم، أعطى حافظ الأسد الإذن لبناء مئات المساجد والمدارس الدينية في جميع أنحاء البلاد، وكانت جميعها خاضعة لسيطرة الأجهزة الأمنية، كما أنهى الجهاز الأمني وصناديق الأوقاف الدينية.

وأنشأ هيكل حكومة جديد يسمى «حكومة الظل» دون تسلسلٍ هرمي يمكن تمثيله في مخطط تنظيمي، حيث كانت السيطرة الفِعلية الوحيدة للدولة تُمارَس بصورةٍ أساسيةٍ من قِبَل نخبةٍ حاكمةٍ تحرّضها أجهزةٌ أمنيةٌ ممتثِلةٌ للسلطة. وأنشأ عام ١٩٧٣ هيئات لتعزيز حقوق العاملين مثل تنظيم الفلاحين؛ وقد مكّن ذلك من ظهور أثرياء جدد وأرضى البرجوازية الوطنية، وأصبح هؤلاء الممثلون وغيرهم جزءًا من شبكة سلطة حافظ الأسد، وصار من المعروف أن هذه الشخصيات هي واجهاتٌ لعمليات تبييض الأموال.

استند حافظ الأسد إلى دراسته للمجتمع السوري في بناء هيكل السلطة وفقاً للعوامل المحلية حسب سياسة «سلة التوازن الطائفي» وهي من السياسات التي كانت ملاحظة عموما من خلال توزيع المناصب والتحاصص الطائفي، التي يقصد بها نصيب كل طائفةٍ أو فئةٍ أو منطقةٍ من المجتمع السوري من المقاعد في كل المؤسسات والوظائف الحكومية، على سبيل المثال: لا يسمح بترفيع الضابط الدرزي إلى أكثر من رتبة لواءٍ، ويجب ألا يوجد أكثر من ٤ ضباط دروز برتبة لواءٍ، في كل المؤسسات مجتمعةً سواء أكانت الجيش أو الأمن أو الشرطة، بل يجب ألا يكون هناك ضابطان دروز في نفس الرتبة في القطعة العسكرية الواحدة، مثال آخر يجب أن تحتوي الوزارات على وزيرين مسيحيين ووزيرٍ درزيٍ، أو أن يكون هناك ممثلٌ عن كل عشيرةٍ من عشائر البادية في مجلس الشعب، ويمكن ضرب أكثر من هدفٍ في المرة الواحدة كأن يكون الوزير من طائفةٍ معينةٍ ومن منطقةٍ معينةٍ ومن حزبٍ معينٍ في الدولة، وبالتالي يُرضون بوزير واحد أبناء طائفته ومنطقته وحزبه! هذا طال كل وظائف الدولة مهما صغرت، بل وحتى المؤسسات التابعة للبعث كاتحاد الطلبة، والاتحاد الرياضي، ونقابة الفنانين، والصحفيين، والكتّاب! ووضع قيوداً صارمةً على كل وسائل الإعلام، وأغلق العديد من الصحف والمجلات، ولاحق الصحفيين المعارضين والكتاب، وأصدر ثلاث صحفٍ رسميةٍ، أما التلفاز فله قناتان فقط.

خاض حرب تشرين الأول/اكتوبر ١٩٧٣ مع مصر ضد إسرائيل، كما خاض حرب استنزافٍ طويلةٍ ضدها، وتورط في الحرب الأهلية في لبنان، واشتبك مع الجيش الإسرائيلي في بعض النقاط فترة اجتياحه لبنان ومعظم الطوائف والأحزاب اللبنانية، وبقي جيشه فيها ٣٠ عامًا، حتى قيل إنه احتلها، وصار الأمن السوري هو الآمر الناهي هناك؛ ودعم بعض فصائل التحرير الفلسطينية، والمقاومة في لبنان مثل حزب الله والحزب السوري القومي الاجتماعي؛ ثم واستضاف بعض فصائل التحرير الفلسطينية بعد اتفاقية «أسلو» في مخيمات سورية، وأنشأ «جيش التحرير الفلسطيني» الذي ضم كل الفصائل الفلسطينية المسلحة الموجودة على أرض سورية ليبقيهم تحت مراقبة الجيش السوري، وأصدر هوية تشبه الهوية السورية للفلسطينيين، وسمح لهم بالتعلم والتوظف، دون أن يسمح لهم بالحصول على الجنسية السورية.

تقارب مع مصر واختلف معها بعد توقيع اتفاق «كامب ديفيد»، وتقارب مع العراق وبعث العراق، ووقع اتفاقية وحدة معهم لكن انقلاب صدام حسين على الحُكم العراقي، حال دون هذه الوحدة، وتقارب مع ليبيا وكانوا بخصوص إجراء وحدة ثلاثية مصر وسوريا وليبيا إلا أنها بقيت على الورق، وتقارب أيضاً مع اليمن، وكان لسورية ومصر وليبيا واليمن دورٌ في دعم عمليات التحرير الفلسطينية على مستوى العالم. وتقرّب من المعسكر الاشتراكي وخصوصاً الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية سابقاً، والصين الشعبية، وكوريا الشمالية والجمهورية الإسلامية الإيرانية؛ وكان ضمن دول عدم الانحياز في مجلس الأمن.

وصول بشار الأسد إلى الحكم وإجراءات تثبيت سلطته:

استمرت دولة الظل في السيطرة على سورية عندما خلَفَ بشار الأسد والده حافظ ٢٠٠٠، واحتفظ الرئيس الجديد بهيكل السلطة الذي أنشأه والده. ومع بداية عهده أشاعَ بعضَ الأمل في التحرير والإصلاح السياسي والاجتماعي. وأُدخِل الإنترنت، وأصبحت الهواتف المحمولة متوفرة، وبدأ ظهور أشكال سطحية أخرى من الحداثة، إلا أن عدم تسامح الدولة الكامن إزاء المعارضة لم يتغير. ظهرت حركة «ربيع دمشق» واعتُقِل أعضاءٌ بارزون منها، بينهم من مكث في السجن لعدة سنواتٍ[١٩] وأطلق سراح معتقلين من الأحزاب السياسية السابقين، وخصوصاً أعضاءُ حزب العمل الشيوعي من سجن تدمر بعد أن قضى بعضهم أكثر من عشر سنوات[٢٠]. وعكست سياسة تعيين المسؤولين البعثيين وتمكن أعضاء الحزب مرةً أخرى من انتخاب قيادة الحزب المحلي، وكان على المرشحين أن ينالوا ثقة قيادة الحزب.

استبدل ببعض وجوه الحرس القديم موظفين جددًا، وانتقل من نظام سيطرة والده اللامركزي إلى عمليةٍ مركزيةٍ لاتخاذ القرارات تعتمد عليه وحده. كما أتى بأفرادٍ من أسرته وكذلك أفراد أصغر سناً من الأجهزة الأمنية والجيش لتشكيل دائرةٍ قريبةٍ حوله؛ وعلى الرغم من موقعهم المتميز في دائرته الداخلية، إلا أن القرار النهائي كان دائماً في يده.

ركز على التحرّر الاقتصادي (اللبرلة)، الذي زاد من حالة عدم المساواة بين المحيط والمركز وخلَق فرصاً لأصحاب الامتيازات على حساب الفقراء[٢١] وصُمِّمت عملية «التحديث» التي أدخلها لتناسب فئةً معينةً من المجتمع[٢٢].

أدى تعاطي بشار الأسد مع السياق الإقليمي إلى تقويض دولة الظل من خلال الإضرار بالعلاقات مع الولايات المتحدة، وعارض غزو العراق ٢٠٠٣. واتُّهِم النظام السوري بعلاقته باغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري، وهو الأمر الذي دفع الولايات المتحدة إلى سحب سفيرها من دمشق عام ٢٠٠٥. وخرج من حالة العزلة في تموز/يوليو ٢٠٠٨ بعد أن دعاه ساركوزي إلى باريس. وبقيت حالة

---

١٩ هيومن رايتس ووتش، (٢٠٠٩/٢/٢٣)، « ربيع دمشق المنسي»

٢٠ ف. ل، ليفيريت، (٢٠٠٥)، «وراثة سوريا: محاكمة بشار بالنار»، واشنطن العاصمة: مؤسسة بروكينغز

٢١ ب. حداد، (٢٠١٢)، «شبكات الأعمال في سوريا: الاقتصاد السياسي لقدرة الاستبداد على الصمود»، ستانفورد، كاليفورنيا: منشورات جامعة ستانفورد.

٢٢ م.كوك، (٢٠١٦)، «الرقص في دمشق: الإبداع والقدرة على الصمود والثورة السورية»، لندن: روتليدج

الطوارئ المعمول بها منذ ١٩٦٣ موضع التنفيذ حتى اندلاع الأحداث السورية الحالة ٢٠١١، فاستبدل بها قانون مكافحة الإرهاب؛ وردًّ بشكل عنيف على الانتفاضة السورية.

الخاتمة والاستنتاجات

لا يمكن فصل تحليل السلطة السورية عن تاريخ نشوئها وتحديداً دور النخب البعثية ومن ثم حافظ الأسد، كونه صاحب تاريخ صراعٍ طويلٍ، وشرسٍ سياسياً، وعسكرياً، وطائفياً. فهم المجتمع السوريّ واستغل حزب البعث والجيش للوصول إلى موقع القرارٍ، ثم انقلب على رفاقه في البعث والجيش للتفرد في السلطة. حسم مسألة الانقلابات العسكرية والصراع على الهوية وعمل المجتمع السياسي، استبعد الأجنحة المعارضة له من الجيش والطائفة العلوية وحزب البعث، وحجّم دور الأحزاب السياسية ووضعها في مؤسسة خاصة تحت رقابة أمنية؛ وجعل حزب البعث وفقاً للدستور الذي وضعه قائداً للدولة والمجتمع. وأنشأ أفرع أمنٍ للسيطرة على كل شيء، وهي أجهزةٌ قمعيةٌ لا تخضع للقانون السوري، بل تندرج تحت بند قانون الطوارئ. واستغل الطائفة العلوية للسيطرة على أجهزة الأمن والجيش واستبعد الضباط الدروز، وجند الأقرباء للسيطرة على القطاعات الحيوية، وأرضى الإسلام السياسي بعدة طرق دون أن يمكّنه من الوصول إلى الحكم، واستغل مناصب مجلس الشعب والجبهة الوطنية التقدمية والمناصب العسكرية والحقائب الوزارية من أجل إرضاء الطوائف والأقليات والفئات السورية من ناحية التمثيل في الدولة. وأقحم حزب البعث في كل تفاصيل الدولة، وجعل لكل قطاعٍ فرع أمنٍ مسؤولاً عنه، وجمع السلطات الثلاث في يده، وأضاف إليها أنه القائد العام للجيش والقوات المسلحة، والأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، ووصل إلى إنشاء ما يسمى «حكومة الظل» أي الحكومة التي تدير البلد في الخفاء.. وهي نخبة النخب السورية حسب الوصف الاجتماعي رغم أنها سياسياً تسمى «طغمة». وبعد وفاته تسلم ابنه بشار الحكم وكانت أولى حركاته الوعود بالانفتاح والإصلاح السياسي والقانوني والاقتصادي، وإطلاق الحريات لكنه فجأةً قام باعتقال كل المعارضين، والحركات السياسية التي سمح بها! وأصدر برعاية الحرس القديم عدة قراراتٍ منعت الحياة السياسية وأعادت الوضع لما كان عليه في عهد والده، واعتمد على الأقرباء أكثر من ذي قبل واستبعد الطائفة ووجوهاً من الحرس القديم وبدأ بخلق محيطٍ جديدٍ له لإدارة البلاد، ثم أعاد الاعتماد على الطائفة وباقي الأقليات والبعث والتحالفات الخارجية مع الدول والجهات المسلحة الموالية له في صراعه ضد الحراك السوري المعارض.